جامـــعة واســـط
مجلـــــــة كليـــــــة التربيـــــة

العـدد الحادي والأربعون
الجزء الأول/تشرين الثانى/٢٠٢٠

شعر أبي تمام من الحماسة الى الرثاء

م/ عبد السلام حازم محمد علي
وزارة التربية / مديرية تربية نينوى

الملخص

يقارب البحث شعر ابي تمام بصورة عامة، ثم يتناول قصيدتين بالدراسة، الاولى تمثل الجانب الحماسي في شعره وهي قصيدة (السيف اصدق إنباء من الكتب) التي قالها في فتح عمورية، والثانية في رثاء صديقه القائد محمد بن حميد الطوسي،

وبما عرف عن ابي تمام من فصاحة في اللفظ وجزالة في المعنى ومهارة في الوصف، فقد كان شاعرا مجددا مفلقا حذقا نبها في اختيار المفردات، هذا كله أهّله ان ينال سبق القصب مقارنة بشعراء آخرين، ويكفي ان المتنبي قال: ابو تمام استاذ كل من قبله من الشعراء.

مثلما ابدع ابو تمام في عموم شعره فقد تفوق في الحماسة والرثاء بقصيدتين خلدتاه مدى الدهر.

Poetry of Abu- Tamam from Enthusiasm to Pathos

Abstract

The research deals with Abu- Tamam's poetry in general, then deals with two poems in study, the first one is represents the enthusiasm part in is poetry, which he titled it (Amorya Conquest), and the second one is pathos his friend, the leader (Muhammad Bin Hamid Al- Tousi).

Abu Tamam was a renovated poet, because he was famous in eloquence in the pronounciation, abundance in the meanings, and clever in choice of vocabulary. All that made him a maven poet if we compared him with other poets, as Al- Mutanabi says: Abu Tamam teacher of all poets who came before.

جاء البيان الى ابي تمام راجيا بتسنمه إمارة الشعر، فلقب ابو تمام ب(أمير البيان)، وجاءت الحكمة وجاءت الفصاحة، فصار سيد الحكمة والفصاحة في شعر زمانه، ثم جاءته القصيدة تتمايل بهجة ودلالا، فصار أمير الشعراء، لذلك قال المتنبي : (أبو تمام استاذ كل من سبقه من الشعراء) [١]

أبو تمام الطائي : (١٨٨ – ٢٣١ هـ) :

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي ، أبو تمام : الشاعر ، الأديب ، أحد أمراء البيان ، ولد في جاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر، وآستقدمه المعتصم إلى بغداد ، فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق ، ثمّ ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها وعمره ثلاث واربعون سنة [٢] "

كان أسمر طويلاً ، فصيحاً ، حلو الكلام ، فيه تمتمة يسيرة ، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطع ، في شعره قوة وجزالة [٣]" وآختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري ، له تصانيف منها : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة ، ومختار أشعار القبائل وهو أصغر من ديوان الحماسة ، ونقائض جرير والأخطل نسب إليه ولعله للأصمعي كما يرى الميمني ، والوحشيات وهو ديوان الحماسة الصغرى ، وديوان شعره .

مولده ونسبه وعرويته:

هو حبيب بن أوس الطائي، والآراء متضاربة فى صحّة نسبِه من طيء، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطيّ، نشأ بدمشق وكان أبوه عطارًا فيها، فألحقه بحائك كي يُحسن حياكة الثياب[٤] " ، وكان منذ نعومة أظفاره يختلفُ إلى حلقات المساجد ينهلُ ممّا كان يجرى فيها من جداول الشعر والثقافة، وسرعان ما تدفّق ينبوع الشعر على لسانِه، كان شعرُه يُعجِب أصحابَ الفلسفة والمعاني، وكان يحفظُ كثيرًا من الشعر القديم فنهلَ منه، كان ذكيًا سريعَ البديهة، ومن أغراضه الشعريّة:

١ .المديح:

شغل المديح القسم الأكبر من شعره، إذ مدح ما يُقارب ستّين شخصًا من الخلفاء ورجال الدولة ونخبة الأدباء، أسلوبه في المدح أسلوب الأقدمين إلّا أنّه كان يزخرُ بالبديع والصور الطريفة والأفكار العميقة، نوَّع في مقدمات مدائحه فكان يفتتحُها بوصف الربيع أو الطلل أو النسيب، نال أبو تمام احترام ممدوحيه، وجوائزهم الكثيرة. [٥]

٢.الوصف:

ترك أبو تمام الكثير من الشعر الوصفيّ، فقد وصف الطبيعة التي شغلت القسم الأكبر من وصفه، كما اشتهر بوصف المعارك فكانت ألفاظه فيها فخمة وأسلوبه جزلًا، وقد امتاز بالخيال الواسع والانفعال الشديد للجمال، فكان وصفه بارعًا يرفعه إلى مستوى رفيع بين شعراء الطبيعة العباقرة. الغزل والإخوانيّات: كانت غزليّاته جاقّة من كلّ عاطفة وحياة، فهي لا تصدرُ عن شاعر شُغِف حبًا، فقد شغل أبو تمام نفسه بأهوال الزمان فلم يُبدع في الغزليّات، وكان أقرب للإجادة في وصف عواطف الصداقة "الإخوانيات" من وصف الحبّ(٦).

٣.الرثاء:

كان رثاؤه قليلًا، وقد قال شعر رثاء في ذَوي القُربى، وفي العظماء والمشهورين في زمان، وقد كان رثاؤه يُعجب ولا يُحزن(٧) .

وكان ابو تمام مثالاً على ما تعرض له أعلام العربية من التشكيك الذي بدأ مع التشكيك في المكان الذي ينتمي إليه من حيث عروبته وعجمته، والمفارقة ما بين العربية والعجمية تحكي هذا الصراع الحضاري بين الحضارة العربية، ونظيرتها الأعجمية التي نازعت العربية في أعلامها ونابغيها، وكأنها أرادت سلب الحضارة العربية من أي تميز، لقد تعرض أبو تمام لمثل هذا التشكيك في البلدة التي ينتمي إليها، كما تعرض للتشكيك في عربيته من عدمها، وفي إسلامه من عدمه، ووقفتنا المكانية هنا في الترجمة له تصور جانبًا من هذا التشكيك الذي قد يكون بحسن نية، وقد يكون بعدمه .

ينتمي أبو تمام حبيب بن أوس الطائي إلى قرية جاسم، وهي " موضع بالشام من عمل الجولان يقرب من بُصرى " وقد رجع بها ياقوت الحموي إلى الأصل اللغوي حيث مادة جسم، ومنه تجسّم الأمر أيْ ركب معظمه، وقال ياقوت الحموي [ت٦٢٦هـ]: " هو اسم قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الأعظم إلى طبرية، انتقل إليها جاسم بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام أيام تبلبلت الألسن ببابل، فسميتْ به " (٨): وإليها يُنسب أبو تمام، وكذلك عدي بن الرقاع العاملي الطائي.

وفي سياق ترجمته لأبي تمام يقول أبو الفرج الأصفهاني [ت٣٥٦هـ]: إنه " من نفس طيء صليبة ومولده ومنشؤه مَنْبِج بقرية منها يُقال لها جاسم " (٩) وتشير كلمة صليبة إلى انتمائه إلى قبيلة

طيء العربية وكونه من أهلها الأصليين، ومن ثمة فهو عربي، رغم أن كثيرًا ممن ترجموا له ذكروا في ثنايا تراجمهم أصله الأعجمي، وأن أباه كان نصرانيًّا واسمه تدوس، فقد نقل أبو بكر الصولي [ت٣٣٦هـ]عن قوم " إن أبا تمام هو حبيب بن تدوس النصراني، فغُيِّر فصُيِّر أوسًا " (١٠) وقد ذكر الخطيب البغدادي [ت ٤٦٣هـ] في نسب أبي تمام ثمانية عشر اسمًا ينتهي بها عند طيء الذي ينتهي بنسبه إلى يعرب بن قحطان، كذلك فقد نقل قول الصولي السابق دون أن يضيف عليه أو يثبته أو ينقضه (١١) كذلك ذكر ابن عساكر [ت ٥٧١هـ] نسبه الذي أورده الخطيب البغدادي، كما نقل كلام الصولي السابق (١٢) دون أن يعلق عليه.

وإذا كنا قد أثبتنا تواريخ وفيات من ترجموا لأبي تمام، فإنما كان ذلك للإشارة إلى أن أقربهم من زمن أبي تمام إنما هو الأصفهاني، وقربه من زمنه يعطي كلامه شيئًا من المصداقية التي قد لا نجدها عند من ابتعد بهم البون عن زمن أبي تمام إلا أن يكونوا قد رددوا كلام مَن سبقوهم، وإذا عدنا إلى الأسبقية الزمنية، واقتربنا شيئًا ما من زمن أبي تمام ووقفنا عند الخليفة الشاعر عبد الله بن المعتز العباسي [ت٢٩٦هـ] وجدناه ينسب أبا تمام إلى قبيلة طيء، ويذكره دائمًا بهذه النسبة الطائي وإذا ذكرنا قوله على سبيل المثال في سياق الحديث عن الكلف بالبديع وتعداده الشعراء الذين كلفوا به: " ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شُغِف به حتى غلب عليه.." (١٣) أدركنا أن انتساب أبي تمام إلى قبيلة طيء العربية وانتماءه إلى العرب حقيقة لا يغضّ منها سوى الواجدين على أبي تمام وهم كُثُر.

وفي سياق القرب الزمني من أبي تمام نجد الجاحظ [١٥٠– ٢٥٥هـ] يذكره في البيان والتبيين في مواضع كثيرة يذكره فيقول: أبو تمام الطائي، وفي مواضع أخرى يقول: حبيب بن أوس (١٤)
ويذكره في كتاب الحيوان في موضعين بالنسب إلى طيء، يقول في أولهما: الطائي، وفي ثانيهما: " وأنشدني أبو تمام الطائي " وكونه أنشده فهو ما يشير إلى التقائه بأبي تمام، إذ يشير تاريخهما مولدًا ووفاةً إلى أن الجاحظ كان أكبر وأطول عمرًا من أبي تمام، كذلك نجد ابن قتيبة [ت٢٧٦هـ] يذكره دائمًا بالطائي في عيون الأخبار (١٥)، ورغم أنه لم يُفرد ترجمة لأبي تمام في كتاب الشعر والشعراء إلا إنه كان إذا ذكره، فإنما يذكره بنسبه إلى طيئ، فيقول: الطائي .

ونجد المبرد أبا العباس محمد بن يزيد [٢١٠هـ – ٢٨٥هـ] يذكر أبا تمام في كتاب الكامل في ثلاثة عشر موضعًا من بينها عشرة مواضح يأتي فيها بالنسبة إلى طيء، فيقول: أبو تمام الطائي، أو حبيب بن أوس الطائي، أو يقول الطائي فقط، بينما يذكر في الثلاثة الأخرى أبا تمام (١٦)

ويتضح من تاريخ مولده ووفاته أنه عاصر أبا تمام، وربما لقيه وروى عنه من الشعر والقول أو روى عمّن روى عن أبي تمام مثل روايته عن الحسن بن رجاء وهو أحد من أخذ عنهم المبرد العلم .

وهذا قول المبرد رغم أنه . على ما يبدو . لم يكن يميل إلى أبي تمام، فقد " قال عبد الله بن المعتز العباسي: جاءني محمد بن يزيد النحوي، فجرى ذكر أبي تمام فلم يوفه حقه، فقال له رجل من الكُتّاب كان في المجلس ما رأيت أحدًا أحفظ لشعر أبي تمام منه: يا أبا العباس ضع يدك على مَنْ شئت من الشعراء، ثم انظر أيحسن أن يقول مثل ما قاله أبو تمام لموسى بن إبراهيم الرافقي [طويل] [١٧]

لَعَمْرِي لَقَدْ أَقْوَتْ مَغَانِيكُمُ بَعْدِ

وَمَحَّتْ كَمَا مَحَّتْ وَشَائِعَ مِنْ بُرْدِ

وَأَنْجَدْتُمُ مِنْ بَعْدِ إِتْهَامِ دَارِكُمْ

فَيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجْدِ

ثم مرّ فيها حتى بلغ قوله في الاعتذار:

أَتَانِي مَعَ الرُّكْبَانِ ظَنٌّ ظَنَنْتُهُ

لَفَفْتُ لَهُ رَأْسِي حَيَاءً مِنَ الْمَجْدِ

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَالْوَرَى

مَعِي وَمَتَى مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

وزاد ابن عساكر أبياتًا أخرى على الأبيات المذكورة ، وختم بقوله: " قال أبو العباس محمد بن يزيد: ما سمعت أحسن من هذا قطُّ ما يهضم هذا الرجل حقَّه إلا أحد رجلين: إما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام، أو عامل يتبحر شعره ولم يسمعه " [١٨] .

كذلك نسبه المسعودي [ت٣٤٦هـ] إلى قبيلة طيء وإلى قرية جاسم، حيث قال: " أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الجاسمي نسبة إلى جاسم وهي قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردن ودمشق بموضع يُعرف بالجولان، ويُعرف بجاسم على أميال من الجابية " [١٩] كل ذلك يجعلنا متحرجين من قبول التشكيك في موطنه وفي نسبه العربي إسلاميًّا كان أم نصرانيًّا، وهذا الأخير كان له صداه في الدراسات الحديثة التي دارت حول شخصية أبي تمام، وكلها دراسات تعتمد تأويل ما أتت

به المراجع القديمة، وإن كان التأويل لا يخلو من ليٍّ لذراع الحقائق، وتوجيه النصوص قسرًا إلى غير منطوقها.

وإذا جئنا عند المحدثين وجدنا لويس شيخو يسرد نسب أبي تمام وينتهي به عند أبي قبيلة طيء، ومنه إلى يعرب بن قحطان [٢٠] وهو تكرار لنسب أبي تمام الذي أشرنا إليه من قبل عند الخطيب البغدادي وابن عساكر وابن خلكان، وكان الاتفاق: " هو حبيب بن أوس الطائي، منسوب إلى طيء القبيلة العربية المشهورة، وكنيته أبو تمام وبها عُرِف "[٢١] ومن ثمة كان يكفي المتشككين في طائية أبي تمام أن يذكروه بهذه الكنية دون أن يلحقوا بها النسب إلى طيء تأكيدًا لتشككهم أو رفضهم الأصل العربي لأبي تمام، بل إن بعض من ترجموا لأبي تمام يستخدمون دائمًا الدالة اللغوية " *قيل*" التي تثير الشك في القائل والمقول والدلالة، من ذلك قول بروكلمان: " *وقيل* إن أباه كان نصرانيًّا يُدعى تدوس (Thaddaeus) كما قيل: إنه التحق بطيء لما انبرى في شبيبته مناصرًا لعبد الكريم الطائي في الهجاء بمدينة حمص " [٢٢] وربما تشير كلمة قيل هنا إلى النقل عن السابقين، ولكن دون تعليق أو تعقيب من الناقل.

ويرجع الدكتور طه حسين بأبي تمام إلى الأصل الأعجمي الذي يراه واضحًا في تأثره بالأدب اليوناني بطريق مباشرة أو غير مباشرة، ومن ثمة يرجح لديه صحة الأصل الأعجمي لوالد أبي تمام، ويلتجئء إلى تأكيد ما يذهب إليه التجاءً فنيًّا عندما يقول عن نوعية اختلاف شعره عن شعر السابقين: " ولكن لأنه يختلف عمّن تقدمه وعاصره من الشعراء في تصوره للشعر نفسه، وفي شدة أخذه نفسه بتحديد المعاني ووحدة القصيدة، وفي كلفه بوصف الطبيعة وميله إلى المعاني الفلسفية يضمنها شعره أيًّا كان الموضوع الذي ينظم فيه " [٢٣] وبعيدًا عن التعليل الفني الذي سوف نقف عنده فيما بعد، فإننا نجد أن الدكتور طه حسين قد نقل ما ذكره القدامى عن نسب أبي تمام، ذلك الذي ذكره الصولي من قبل، ونقله عنه مَنْ جاءوا بعده، وقد أشرنا من قبل إلى أن الصولي نفسه لم يؤكد نصرانية والد أبي تمام، واكتفى بأن قال: " وقال قوم " وذكرنا مدلول هذا القول والقائل المجهول له.

والدكتور طه حسين نفسه ذو رأي مختلف، أو قل إنه رأي مضطرب اضطرابًا بَيِّنًا، ذلك أنه يلجأ إلى المنحى الفني نفسه الذي أثبت من خلاله الأصل الأعجمي لأبي تمام، ليقول عنه: " وهو يتحدث بأنه طائيٌّ ويفخر بهذا، فهو إذا مدح أحمد بن أبي دواد وزير المعتصم وزعيم المعتزلة في عصره، فاخره وتحدث كما يتحدث النِّد للنِّد، فزعم في القصيدة التي أولها [كامل] [٢٤]:

أَرَأَيْتَ أَيَّ سَوَالِفٍ وَخُدُودِ

عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُود

أن مكانه من أحمد مكان الرجل السريّ الذي يستطيع أن يساميه وأن القبيلتين طيء وإياد تتقاربان وتشتركان في المجد، فلطيء حاتمها ولإياد كعب " [٢٥] ثم يعود فيقول معتمدًا على الرواة والمؤرخين الذين أشرنا إليهم من قبل: " ولكن قومًا كثيرين من الذين عاصروا أبا تمام وكتبوا عنه بعد موته يتحدثون أن أبا تمام لم يكن من طيء في شيء، بل لم يكن من العرب في شيء، وأوس هذا اسم صنعه أبو تمام وحرّفه عن اسم أبيه " وهو كلام ابن خلكان الذي أثبتناه قبل، كذلك تابع طه حسين ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية من ترجمة لأبي تمام.

وإذا كانت الآراء متضاربة في صحة نسبه إلى طيء كما يقول الدكتور شوقي ضيف فإنه يؤكد في تعقيبه على كلام بروكلمان السابق عن نصرانية والد أبي تمام: " ونصرانية أبيه – إنْ صحّتْ – لا تنفيه من العرب ولا من طيء " [٢٦] كذلك يعقب الدكتور شوقي ضيف على ما مال إليه طه حسين متابعًا رأي مرجليوث من أن أبا تمام يوناني الأصل؛ لأنه حرّف اسم أبيه من ثيودوس إلى أوس: " وظنّ مرجليوث أن هذا الاسم اختصار لثيودوس، وتبعه طه حسين، فقال: إنه اسم يونانيٌّ، واستظهر أن يكون أبو تمام طائيًّا بالولاء. ومَن يقرأ شعره وفخره العارم بطيء لا يشك في أنه طائيٌّ صليبة، وأنه من صميم طيء لا دعيّ فيها ولا من مواليها " ووصف ما ذهب إليه مرجليوث بالظن يشير إلى نفي الدكتور شوقي ضيف له، وتأكيده على طائية أبي تمام ومن ثمة عروبته التي ذكرها هنا.

وإذا كان كلٌّ من لويس شيخو وبطرس البستاني قد أكدا على انتماءة أبي تمام إلى قبيلة طيء العربية المشهورة، مما يعني اتفاقهما على كونه عربيًّا، فإن الدكتور عمر فروخ كان كلفًا بإثبات النسب غير العربي لأبي تمام، نافيًا لكل ما يقال غير ذلك، فهو يشكك في انتماءة أبي تمام إلى جاسم التي تقع في منطقة منبج، من ذلك تعليقه على قول أبي الفرج الأصفهاني السابق بانتمائه إلى منبج التي منها قرية جاسم، يقول عمر فروخ: " ألعلّ هناك غير منبج التي تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب؟! أم أن هنالك غير جاسم التي تقع في حوران إلى الجنوب الشرقي من دمشق؟! أو لعلّ الأصفهاني وَهِمَ فأراد أن يجعل مولد أبي تمام قريبًا من مولد تلميذه البحتري، والبحتري كان مولده منبج "[٢٧] ثم يعود هو فيثبت أن أهل أبي تمام كانوا يسكنون بجاسم وبعيجاء، وعيجاء أيضًا من قرى حوران.

وفي سياق الحديث عن نسب أبي تمام يتحدث عمر فرّوخ عن عروبة أبي تمام وطائيته، يتحدث عن موقف نجيب محمد البهبيتي بنبرة لا تخلو من استهجان وسخر، فالبهبيتي يرى أن أبا تمام عربي صريح، فهو طيء الدم والولادة [٢٨] ولعلنا نستدعي هنا في هذا السياق نسبة الطائيّ التي اقترنت بأبي تمام عند هؤلاء المؤرخين والأدباء الذين كانوا قريبي عهد بأبي تمام، وبها رجحنا نسبه العربي الذي أثبته المؤرخون السابقون، بل إن الأمر في شأن عروبة أبي تمام بين الرفض والإثبات إنما يرجع إلى محاولات التشكيك التي واجهتها الثقافة العربية " إن دليلاً واحدًا . كما يقول د/مصطفى الشكعة . على عدم طائية أبي تمام لم يرتفع إلى درجة كافية من الإقناع والمسألة في واقعها قد وجدت ارتياحًا في خاطر بعض المستشرقين الذين يحلو لهم أن يباعدوا بين كل نابغةٍ فذٍّ وبين عروبته "[٢٩].

ولعلنا في هذا المقام نستدعي الخبر المستفيض الذي رواه أبو الحسن علي بن إسماعيل النوبختي [٣٠] عن البحتري وهو ما يؤكد طائية أبي تمام، ومن ثمّ عروبته، فقد دخل البحتري على أبي سعيد محمد بن يوسف وكان في مجلسه أبو تمام، ولم يكن البحتري قد تعرف به بعد، وأخذ البحتري في إنشاد مدحيته في محمد بن يوسف، تلك المدحية التي أُعجب بها الممدوح أيما إعجاب، ومطلع القصيدة قول البحتري[٣١]:

أَأَفَاقَ صَبٌّ مِنْ هَوًى فَأُفِيقَا

أَوْ خَانَ عَهْدًا أَوْ أَطَاعَ شَفِيقَا

فادَّعى أبو تمام أن هذا من شعره، ولكن أخذه البحتري وسبق به إلى محمد بن يوسف وحرج موقف البحتري، وقال عن ذلك: " فخرجتُ متحيرًا لا أدري ما أقول، ونويتُ أن أسأل عن الرجل مَنْ هو؟ فما أبعدتُ حتى ردني أبو سعيد، ثم قال: جنيْتُ عليك فاحْتمِل، أتدري مَنْ هذا؟ قلتُ: لا، قال: هذا ابن عمك حبيب بن أوس الطائيّ أبو تمام، فقُمْ إليه، فقمتُ إليه فعانقتُه، ثم أقبل يُقَرِّظُني ويصف شِعري، وقال: إنما مزحتُ معك، فلزمتُه بعد ذلك، وكثُر عُجْبي من سرعة حفظه " وهذه رواية أبي بكر الصولي في أخبار أبي تمام، وقريب منها ما رواه الأصفهاني في حديثه عن البحتري من حكايتين قريبتين في الدلالة واللفظ وقد جمع بينهما الأصفهاني لهذا القرب، إحداهما عن أبي الغوث بن البحتري، والأخرى عن علي بن العباس النوبختي عن البحتري .

وقد روى الآمدي [ت٣٧٠هـ] خبر تعارفهما من طريق آخر لا يخلو من غموض واختلاف نراه في قول الآمدي: " وقد أخبرني أنا رجل من أهل الجزيرة يكنى أبا الوضاح . وكان عالمًا بشعر

أبي تمام والبحتري ةأخبارهما . أن القصيدة التي سمعها أبو تمام من البحتري عند محمد بن يوسف . وكان اجتماعهما وتعارفهما . القصيدة التي أولها [٣٢]:

فِيمَ ابْتِدَارُكُمَا الْمَلامَ وَلُوعَا
أَبَكَيْتَ إِلاَّ دِمْنَةً وَرُبُوعَا

وأنه لما بلغ إلى قوله:

فِي مَنْزِلٍ ضَنْكٍ تَخَالُ بِهِ الْقَنَا
بَيْنَ الضُّلُوعِ إِذَا انْحَنَيْنَ ضُلُوعَا

نهض إليه أبو تمام فقبّل بين عينيه: سرورًا وتحفِّيًا بالطائية، ثم قال: أبى الله إلا أن يكون الشعر يمنيًّا " [٣٣] ورغم اختلاف هذه الرواية عن رواية الأصفهاني والصولي . وهما متقدمان على الآمدي من حيث الزمن . في تفاصيل الرواية، وفي القصيدة التي كانت سببًا في تعارف البحتري بأبي تمام، إلا أنها تتفق وروايتيهما من حيث احتفاء أبي تمام بطائية البحتري، وتمنيه أن تلد كل طائية شاعرًا مثل البحتري.

ولم يكن احتفاء أبي تمام بطائية البحتري إلا عن عقيدة راسخة تؤكد انتماءه هو إلى هذه القبيلة العربية انتماءً ليس انتماء ولاءٍ ولكنه انتماء صليبة في قول أبي الفرج الأصفهاني سالف الذكر.

لقد جمعت بين أبي تمام والشاعر العباسي علي بن الجهم صداقة متينة ومودة أصيلة، ولابن الجهم عن أبي تمام خبر يؤكد ذلك سوف ندلل به على إسلامية أبي تمام من بعد، لكننا هنا نستدعي مقولته التي ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق، فقد قال ابن الجهم لمحدثه عن أبي تمام: " فإنه أخٌ بالأدب والدين والمروءة، أوَ ما سمعتَ قوله في طيء [٣٤]:

إِنْ يُكْدِ مُطَّرَفُ الإِخَاءِ فَإِنَّنَا
أَوْ يَخْتَلِفْ مَاءُ الْوِصَالِ فَمَاؤُنَا
أَوْ يَفْتَرِقْ نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَنَا
نَغْدُو وَنَسْرِي فِي إِخَاءٍ تَالِدٍ
عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدٍ
أَدَبٌ أَقَمْنَاهُ مُقَامَ الْوَالِدِ

وهذه الأبيات وإن دلّت على ما كان يحمله أبو تمام من مودة صادقة لعلي بن الجهم، فإن كونها في طيء على ما يقول ابن الجهم، إنما يدل على ما يحمله أبو تمام من محبة ووفاء لطيء يشبه ما يحمله من نظيرتها لصاحبه ابن الجهم.

ثم إننا لنجد في القصيدة التي قالها مخلد بن بكار في هجاء أبي تمام دليلاً صريحًا على عروبته رغم مجيئها في سياق السخر من أبي تمام، يقول مخلد [٣٥]:

أَنْـتَ عِنْـدِي عَرَبِـيُّ الْـ ... أَصْـلِ مَـا فِيـكَ كَـلامُ
عَرَبِـيٌّ عَرَبِـيٌّ ... أَجَـإِيٌّ مَـا تُـرَامُ
شَـعْرُ فَخْـذَيْكَ وَسَاقَيْـ ... ـكَ خُزَامَـى وَثُمَـامُ
وَضُـلُوعُ الشِّـلْوِ مِـنْ صَـدْ ... رِكَ نَبْـعٌ وَبَشَـامُ
وَقَـذَى عَيْنَيْـكَ صَـمْغٌ ... وَنَوَاصِـيكَ ثَغَـامُ
لَـوْ تَحَرَّكْـتَ كَـذَا لانْـ ... ـجَفَلَتْ مِنْـكَ نَعَـامُ
وَظِبَـاءٌ مُخْصِـبَاتٌ ... وَيَرَابِيـعُ عِظَـامُ
أَنَـا مَـا ذَنْبِـي إِنْ خَـا ... لَفَنِـي فِيـكَ الأَنَـامُ؟
وَأَتَـتْ مِنْـكَ سَـجَايَا ... نَبَطِيَّـاتٌ لِئَـامُ
وَقَفَـا يَحْلِـفُ أَنْ مَـا ... عَرَّقَـتْ فِيـكَ الْكِـرَامُ
ثُـمَّ قَـالُوا: جَاسِـمِيٌّ ... مِـنْ بَنِـي الأَنْبَـاطِ خَـامُ
كَـذَبُوا مَـا أَنْـتَ إِلاَّ ... عَرَبِـيٌّ مَـا تُضَـامُ
بَيْتُـهُ مَـا بَـيْنَ سَـلْمَى ... وَحَوالَيْـهِ سِـلاَمُ
وَلَـهُ مِـنْ إِرْثِ آبَـا ... ءٍ قِسِـيٌّ وَسِـهَامُ
وَنَخِيـلٌ بَاسِـقَاتٌ ... قَـدْ دَنَـا مِنْهَـا صِـرَامُ
أَنْـتَ عِنْـدِي عَرَبِـيٌّ ... عَرَبِـيٌّ والسَّـلاَمُ

ويقول صاحب الاغاني عن ابي تمام:

((وله مذهب في المطابق هو كالسابق فيه جميع الشعراء، وان كانوا قد فتحوه قبله، وقالوا القليل منه،فإن له فضل الاكثار فيه، والسلوك في جميع طرقه))[٣٦] وانكر الآمدي على ابي تمام هذا الفضل البتة لأن الناس سبقوه فيه، ثم عد ((استكثاره منه وافراطه فيه من اعظم ذنوبه، واكبر عيوبه))[٣٧].

أما ابن رشيق فيظهر لنا بجلاء انه أميل الى الاصفهاني في تأكيد فضل ابي تمام، ثم قال عن ابي تمام:

((انه كان يجيد باب التصنيع))[٣٨].

وأما الجرجاني فذكر أن أبا تمام كان يجمع أحيانا المعنى البديع الى الصنعة اللطيفة وجعله مرة ثانية هو وأبا نواس((سيديّ وإماميّ أهل الصنعة)) [٣٩].

وفي سنة ثلاث وعشرين غزا المعتصم الروم تلبية لنداء امرأة مسلمة أسيرة صاحت (وامعتصماه)، فسخر منها العلج الرومي وهو يضربها ويقول (ماذا يفعل لك المعتصم .. أيأتي على فرس ابلق كي ينقذك؟ وزاد العج في ضربها) [٤٠]، فلم علم المعتصم بذلك جهز جيش وغزا الروم فأنكاهم نكاية عظيمة، وبقيت (عمورية) التي ادعى الكهان وقراء النجوم وغيرهم ، انها لن تفتح الا في موسم جني التين والعنب، فغضب المعتصم وقرر فتحها بالسيف ، فقال أبوتمام في فتح عمورية قصيدة تقع بين الحماسة والفخر والمدح [٤١]:

السيفُ أصدقُ أنباءً منَ الكتبِ ... في حدّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللّعبِ
بيضُ الصفائحِ لاسودُ الصحائفِ في ... متونهنّ جلاءُ الشكِّ والريبِ
والعلمُ في شهبِ الأرماحِ لامعةً ... بينَ الخميسينِ لافي السبعةِ الشّهبِ
أينَ الروايةُ أم أينَ النجومُ وما ... صاغوهُ منْ زخرفٍ فيها ومنْ كذبِ ؟
تخرصاً وأحاديثاً ملفقةً ... ليستْ بنبعٍ إذا عدّتْ ولاغربِ
عجائباً زعموا الأيامَ مجفلةً ... عنهنّ في صفرِ الأصفارِ أو رجبِ
وخوفوا الناسَ منْ دهياءَ مظلمةٍ ... إذا بدا الكوكبُ الغربيُ ذو الذّنبِ
وصيّروا الأبرجَ العليا مرتبةً ... ما كانَ منقلباً أو غيرَ منقلبِ
يقضونَ بالأمرِ عنها وهيَ غافلةٌ ... مادارَ في فلكٍ منها وفي قُطبِ
لو بينتْ قطّ أمراً قبلَ موقعهِ ... لم تخفِ ماحلّ بالأوثانِ والصّلبِ
فتحُ الفتوحِ تعالى أنْ يحيطَ بهِ ... نظمٌ منَ الشّعرِ أو نثرٌ منَ الخطبِ
فتحٌ تفتّحُ أبوابُ السّماء لهِ ... وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القشبِ
يايومَ وقعةِ عموريةَ آنصرفتْ ... منكِ المنى حفلاً معسولةَ الحلبِ
أمّ لهم لو رجوا أنْ تفتدى جعلوا ... فداءها كلّ أمّ برّةٍ وأبِ
بكرٌ فما آفترعتها كفّ حادثةٍ ... ولا ترقتْ إليها همّةُ النوبِ
منْ عهدِ إسكندرَ أو قبلَ ذلكَ قدْ ... شابتْ نواصي الليالي وهي لمْ تشبِ
حتى إذا مخضَ اللهُ السنينَ لها ... مخضَ البخيلةِ كانتْ زبدةَ الحقبِ
أتتهمْ الكربةُ السوداءُ سادرةً ... منها وكانَ آسمها فرّاجةَ الكربِ
جرى لها الفألُ سنحاً يومَ أنقرةٍ ... إذْ غودرتْ وحشةَ الساحاتِ والرحبِ
لمّا رأتْ أختها بالأمسِ قدْ خربتْ ... كانَ الخرابُ لها أعدى منَ الجربِ
كمْ بينَ حيطانها منْ فارسٍ بطلٍ ... قاني الذوائبِ منْ آني دمٍ سربِ
غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضحى ... يقلّهُ وسطها صبحٌ منَ اللّهبِ
حتّى كأنّ جلابيبَ الدّجى رغبتْ ... عنْ لونها أو كأنّ الشمسِ لمْ تغبِ
ضوءٌ منَ النارِ والظلماءُ عاكفةٌ ... وظلمةٌ منْ دخانٍ في ضحى شحبِ
فالشمسُ طالعةٌ منْ ذا وقد أفلتْ ... والشمسُ واجبةٌ منْ ذا ولمْ تجبِ
تصرّحَ الدهرُ تصريحَ الغمامِ لها ... عنْ يومِ هيجاءَ منها طاهرٍ جُنُبِ
لمْ تطلعِ الشمسُ فيهِ يومَ ذاكَ على ... بانٍ بأهلٍ ولمْ تغربْ على عزبِ

تعد هذه القصيدة واحدة من أمهات القصائد العربية النادرة، فهي تتفاعل مع الحماسة، وتشتغل على المدح، وتنبني على الفخر، فهي تبين ان الحل الأمثل هو بالسيف، لا طريق التكهنات والهرطقات، وان العزيمة أقوى من التنبؤ، وان النصر يأتي عن طريق (بيضُ الصفائحِ لاسودُ الصحائفِ)، أي طريق السيف لا الكتب التي تزعم المزاعم الفارغة.

لاشك ان الشاعر في قصيدته هذه قد علق النصر على حد السيف، لاعين طريق التهويمات والخرافات التي نطرحها الكتب الصفر، والعلم بالنتائج يأتي عن طريق رؤوس الرماح، بعيدا عن تخرصات قراء النجوم ومدعي الغيب.

القصيدة هي صفعة الواقع على وجه الكذب والرياء، تشتد القصيدة وتحتد ويحمرّ جمرها، بغية اسقاط الاقنعة الكاذبة والروايات المسمومة التي كادت ان تودي بفرحة النصر العظيم، لولايقظة

المعتصم القائد المسلم، وانتباهة شاعرنا الكبير ابي تمام الذي كان واحدا من المشجعين على اعتلاء ناصية النصر بالسيف لابالانتظار لحين نضج التين والعنب وهو وقت بعيد كما يدعي اصحاب الكتب وقراء النجوم، فكان الحل السريع الساحق الماحق هو(السيف)، ولذلك بدأ ابو تمام قصيدته هذه ب(السيف):

السيف اصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

أما في الرثاء فلعل القصيدة التي كتبها أبو تمام بحق صديقه القائد محمد بن حميد الطوسي الذي استشهد في الحرب ضد (بابك الخرمي)، فتعد ايضا من أمهات الشعر العربي في الرثاء، وقرأت على أحد القادة، فقال (يا ليتني متّ وكُتبتْ فيّ!).

وكان القائد محمد بن حميد الطوسي، من كبار قادة جيوش الخليفة المأمون، حيث استعان به في مقاتلة الخارجين عليه وبخاصة بابك الخرمي الذى ادعى الالوهية فأبلى الرجل في قتاله بلاء حسنا، لكن جماعة من أنصار بابك الخرمي نصبوا له كمينا عام ٢١٤ هجريا وخرجو عليه بغتة ففر مغظم أصحابه لكنه صمد أمامهم وقاتلهم قتالا شديدا حتى كسرت في يده ٩ سيوف ولما يئسوا من قتله احتالوا بأن ضربوا فرسه بالرمح فسقط إلى الارض فاجتمعو عليه وقتلوه [٤٢] .

تبدأ القصيدة بتصوير هول المصاب وشدة الفجيعة [٤٣]:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

القصيدة

كذا فليَجلَّ الخطبُ وليَفدحِ الأمرُ ... فليسَ لعين لم يفضْ ماؤها عذرُ
توفيتِ الآمالُ بعدَ محمد ... وأصبحَ في شُغْلٍ عنِ السَّفرِ السَّفْرُ
وما كانَ إلا مالَ من قلَّ مالهُ ... وذخراً لمنْ أمسى وليسَ له ذخرُ
وما كانَ يدري مجتدي جودِ كفهِ ... إذا ما استهلَّتْ أنَّه خُلِقَ العُسْرُ
ألا في سبيلِ اللهِ منْ عُطِّلَت لَه ... فِجَاجُ سَبيلِ اللهِ وانثغَرَ الثَّغْرُ
فتًى كُلَّما فاضَتْ عُيونُ قَبيلةٍ ... دماً ضحكتْ عنه الأحاديثُ والذكرُ
فتًى ماتَ بين الضربِ والطعنِ ميتة ... تقومُ مقامَ النصرِ إذْ فاتهَ النصرُ
وما ماتَ حتى ماتَ مَضربُ سيفهِ ... مِنَ الضَّرْبِ واعْتَلَّتْ عليهِ القَنَا السُّمْرُ
وقد كانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهْلاً فردَّهُ ... إليه الحِفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعافُ العارَ حتى كأنَّه ... هو الكفرُ يومَ الروعِ أوْ دونَه الكفرُ
فأثبتَ في مستنقعِ الموتِ رجلَه ... وقال لها منْ تحت أخمُصِكِ الحشرُ
غَدَا غَدْوَةً والحَمْدُ نَسْجُ رِدائِهِ ... فلم ينصرفْ إلا وأكفانُه الأجرُ
تردى ثيابَ الموتِ حمراً فما دجا ... لها الليلُ إلاَّ وهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خَضْرُ
كأنَّ بَنِي نَبْهَانَ يومَ وَفاتِه ... نُجومُ سَماءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِها البَدْرُ
يُعَزَّونَ عن ثاوٍ تُعزى بهِ العلى ... ويبكي عليهِ الجودُ والبأسُ والشعرُ
وأنَّى لهمْ صبرٌ عليه وقد مضى ... إلى الموتِ حتى استشهدا هو والصبرُ!
فتًى كانَ عَذْبَ الرُّوحِ لامِنْ غَضاضَة ... ولكنَّ كبراً أنْ يقالَ به كبرُ!
فتى سلبتهُ الخيلُ وهوَ حِمًى لها ... ويزَّتْهُ نارُ الحَرْبِ وهْوَ لها جَمْرُ
وقدْ كانتِ البيضُ المآثيرُ في الوغى ... بَواتِرَ فهْيَ الآنَ مِن بَعْدِهِ بُتْرُ
أمنْ بعدِ طيِّ الحادثاتِ محمداً ... يكونُ لأثوابِ الندى أبداً نشرُ ؟!
إذا شجراتُ العُرفِ جُذَّتْ أصولها ... ففي أيِّ فرعٍ يوجدُ الورَقُ النَّضْرُ ؟
لَئِنْ أُبغِضَ الدَّهْرُ الخَؤونُ لِفَقْدِهِ ... لَعَهْدِي بهِ مِمَّنْ يُحَبُّ له الدَّهْرُ
لئنْ غدَرَتْ في الروعِ أيامُه بهِ ... لَمَا زَالتِ الأيَّامُ شِيمتُها الغَدْرُ
لئن ألبستْ فيهِ المصيبةَ طيِّعٌ ... لَمَا عُريَتْ منها تَميمٌ ولا بَكْرُ
كذلكَ ما نَنفَكُّ نَفْقِدُ هالِكاً ... يُشارِكُنا في فَقْدِهِ البَدْوُ والحضْرُ
سقى الغيثُ غيثاً وارتِ الأرضُ شخصَه ... وإنْ لم يكنْ فيهِ سحابٌ ولا قطرُ
وكيفَ احتمالي للسحابِ صنيعة ... بإسقائِها قَبْراً وفي لَحدِهِ البَحْرُ!
مضى طاهرَ الأثوابِ لم تبقَ روضة ... غداةَ ثوى إلا اشتهتْ أنَّها قبرُ

ثَوَى فِي الثَّرَى مَنْ كانَ يَحيا بِهِ الثَّرَى ... ويغمرُ صرفَ الدهرِ نائلُهُ الغمرُ
عليكَ سَلامُ اللهِ وَقفاً فإنَّني ... رَأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليسَ لهُ عُمْرُ

تبدأ القصيدة بتصوير هول الفاجعة التي اصابت المسلمين في ذلك الزمن، لذلك رفض الشاعر أية حجة لأية عين اذا لم تدمع، فالحادثة هي هول هال الناس واخرجها من هدوئها وعقلها الرزين الى بوتقة القهر العظيم، حتى ان المسافر قد توقف عن سفره وانشغل بالمصيبة الكبرى، كما ان القائد محمدا كان مشهورا بكرمه، لذلك قال الشاعر:

وما كانَ إلا مالَ من قلَّ مالهُ ... وذخراً لمنْ أمسى وليسَ له ذخرُ

ورأى ابو تمام في مرثيته العظيمة هذه ان كل أمل تعطل بوفاة القائد المغدور به الطوسي، ولم تكن المسألة قضية شخصية، أو صداقة عارضة، أو مكسبا أو لقبا يفوز به أبو تمام، كانت فاجعة عظيمة ضربت أمة الاسلام في ذلك الزمن، وبخاصة ان (بابك الخرمي) نصّب نفسه الهاً، وصبئ عن دين الحق، وجيش الجيوش، واعد العدة لحرب المسلمين اكثر من عشرين عاما، في معارك ذهب ضحيتها خيرة شجعان الاسلام في ذلك الزمان، مما حدا بالخليفة المعتصم بالله أن يكلف قائده (الأفشين) بالقضاء على (الخرمي)، وعبر سلسلة من المعارك الضارية والكمائن المعقدة، تمكن الافشين من القاء القبض على الخرمي وسلمه الى المعتصم الذي عذبه عذابا لم يره بشر، ثم أمر بصلبه هو وأخوه. الملاحظ في هذه القصيدة ان لغتها سلسة بسيطة غير مركبة ولا تعقيد فيها، بعكس ما عرف عن ابي تمام بأنه شاعر مجدد، لغته صعبة معقدة، الفاظه مركبة، الى حد سأل بعضهم أبا تمام: (لماذا تقول مالا يُفهم؟) ، فأجابهم أبو تمام (لماذا لاتفهمون ما يُقال؟).

ان مرثية ابي تمام هذه ملأت الدنيا، وسارت باخبارها الركبان، وتحدث بها الزمان، فهي بالاضافة الى قوة فصاحتها، وعمق دلالاتها، قصيدة ذات تأثير انساني عميق وفاء لصديق نادر في الزمان وقائد بطل مسلم قضى محاربا في سبيل الله، لم يتوان ولم يتراجع ولم يستسلم عندما انهزم من حوله من المقاتلين، بقي يقاتل وحيدا حتى قتل حصانه، فتكالبوا عليه من كل جانب واغتالوه جبنا وخسة منهم وهو يقاتلهم جميعا حتى استشهد.

لذلك كان رد ابي تمام صاعقا، عندما طلب من كل عين أن تدمع ولا عذر للتي لاتدمع، فالمصيبة مزقت فؤاد ابي تمام، كما مزقت قلوب اهل الاسلام الغيارى، ويوغل أبو تمام في التعمق

أكثر فأكثر في وصف شخصية الطوسي، حتى لنكاد نعتقد أنه يبالغ في وصفها، وذلك لعظمة هذه الشخصية الاسلامية ودورها العظيم في اخماد ثورة الكفر والالحاد التي اعلنها الخرمي على الملأ حينما طلب من اتباعه ترك عبادة الآله الواحد الأحد، واستبداله بعبادة (بابك الخرمي)، وكان للدور البطولي والانساني اللذين لعبهما الطوسي تأثير كبير في نفس الشاعر وذلك واضح في قوله:

وقد كانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهْلاً فردَّهُ ... إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعافُ العارَ حتى كأنَّه ... هو الكفرُ يومَ الروعِ أوْ دونَه الكفرُ
فأثبتَ في مستنقعِ الموتِ رجلَه ... وقال لها مِنْ تحت أخمُصِكِ الحشرُ
غَدَا غَدْوَةً والحَمْدُ نَسْجُ رِدائِهِ ... فلم ينصرفْ إلا وأكفانُه الأجرُ
تردى ثيابَ الموتِ حمراً فما دجا ... لها الليلُ إلاَّ وهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خَضْرُ
كأنَّ بَنِي نَبْهَانَ يومَ وَفاتِه ... نُجومُ سَماءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِها البَدْرُ
يُعَزَّونَ عن ثاوٍ تُعزى بهِ العلى ... ويبكي عليهِ الجودُ والبأسُ والشعرُ
وأنَّى لهمْ صبرٌ عليه وقد مضى ... إلى الموتِ حتى استشهدا هو والصبرُ

وواضح هنا ان القائد المقدام الطوسي كان بامكانه ان ينجو من الموت، لكنه فضّل الاستشهاد بدلا من الهرب الذي هو العار والموت دونه اهون وهو الكفر الذي يراه الطوسي اصعب من العار، فرفض الكفر واستقبل الشهادة بقلب رحب وروح راضية مطمئنة، فكان يحمد الله على كل شيء، متمسكا بالصبر، فاستشهدا هو والصبر، وهذا تعبير بلاغي عظيم نادرا ما نادت به قصيدة او حواه شعر.

لم يبحث الشاعر عن خلة شريفة أو مكرمة ناصعة أو جود أو شهامة في البشر الا ووجدها في القائد الطوسي الشهيد رحمه الله.

لقد كانت مرثية ابي تمام هذه كما أيد ذلك الشعراء والعلماء والملوك والدارسون والباحثون اعظم مرثية بتأريخ الشعر العربي، حتى ان قائد المأمون أبي دلف القاسم بن عيسى قال لأبي تمام (يا ليتنا متنا وكتبت فينا هذه المرثية!)(٤٤)

خلاصة القول ان ابا تمام كان شاعرا مفلقا، اريب، فصيحا، بليغا، له سطوة واضحة في الشعر العربي، كان شاعرا مجددا، وكانت بعض مفردات شعره تصعب على العامة، فصنع له المجد قامة شعرية متميزة بتجديدها وتطورها وفصاحتها وعمق معانيها، قامة نادرا ما وصل اليها أحد.

ومع هذا فالحديث لايتوقف عن الشاعر أبي تمام، فثمة حاقد هنا، وحاسد هناك، الحاقدون هم في الاصل الصائدون في الماء العكر للبحث عن سمكة تائهة،فلم يتوقفوا حتى يومنا هذا ، عن تصنيع المزاعم ، وابتكار الاتهامات ، واختراع الوسائل التي تبغي النيل من اصل كل مبدع عربي في كل زمان ومكان، أما الحاسد فهو الذي أرّقه وأزعجهُ وأقلقهُ صعود ابي تمام الى قمة المجد واعالي المانزل الشعرية، فقالوا لغة ابي تمام لغة محدثة لاتتقبلها العقول ولاتميل اليها القلوب، وتحدثوا عن المعاني المطروحة، ووقع الحافر على الحافر، لأثبات ان أبا تمام أخذ أو كما يقصدون (سرق) من الشعر القديم وسوى ذلك من الحجج الواهية والاتهامات.

إن حديث الشعراء العرب عن الخطوب وتعددها متوارث منذ البديات الأولى للشعر العربي، ولا يُعاب الشاعر المحدث أن يطرق مثل هذه الموضوعات المتوارثة؛ لأنها إرث عام، ومتجددة في الآن عينه، والشاعر مرتبط بتجاربه التي قد تتفق مع سابقيه، وقد لا تتفق، وإذا اتفقت كان الفيصل في الجودة بين الشعراء مرتبطًا بطبيعة البنية الفنية التي يصوغ فيها الشاعر تجاربه، وليس كلام الجاحظ ببعيد عن هذا السياق: " والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي . المدني . وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك؛ فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير " [٤٥] وبهذه المنظومة البنائية المتكاملة للشعر يتفاضل الشعراء فيما بينهم.

وتحدث كثيرون عن خروج شعر ابي تمام عن المألوف وقوله (مالايُفهم)، ويبدو أننا لو وقفنا عند هذا المركب الإضافي خطوات البث لأدركنا فنية الصورة وبراعة الشاعر في الخروج على المألوف عندما يشبه البثّ بكائن حيٍّ له خطوات يخطوها في بدنه، وهي صورة فنية ترسم أثر الحزن ليس على نفس أبي تمام وحده، فيكون الأمر معنويًّا، وإنما حاول أن يجسد هذه الأحزان المعنوية بصورة مادية محسوسة تكشف عن عمق الحزن في نفسه مهما كانت محاولته في تخفيفه من خلال اسم الفاعل مقصر في صدر المصراع الأول .

ومما أخذه النقاد على أبي تمام في سياق المعاني قوله من مدح أبي الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة [طويل] [٤٦]:

ربنا انوررَقِيقُ حَوَاشِي الْحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بُرْدُ

فقد قال الآمدي: " والخطأ في هذا البيت ظاهر؛ لأني ما علمت أحدًا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحِلم بالرقة، وإنما يوصف بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك " [٤٧] وقال مثله العسكري [٤٨] وعابه القاضي الجرجاني لابتعاده عن العرف في وصف البُرد فقال: " والبُرد لا يوصف بالرقة، وإنما يوصف بالصفاقة والدقة " [٤٩] وكأنما كان أبو تمام في مثل هذا البيت مخالفًا للأعراف والتقاليد الشعرية التي تجسدت فيما عُرف بـ عمود الشعر، غير أنه من المؤكد " أن هذا البيت لم يفهمه المتقدمون؛ لأنهم لم يألفوا هذه الصورة صورة الحلم بالكفين وتشبيهه بالبُرد، وإنما كانوا يشبهون الحلم بالجبال في مثل هذا البيت [كامل][٥٠]:

أَحْلاَمُنَا تَزِنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً وَتَخَالُنَا جِنًّا إِذَا مَا نَجْهَلُ

فالرجل الحليم هو الثقيل، فأما هذا الحلم الذي يوصف بأنه رقيق الحواشي، فهذا شيء لم تعرفه العرب.

وإذا كنا في سياق الصورة الاستعارية التي يشبه فيها أبو تمام الحلم بشيء مادي جوانبه رقيقة، وأنه يمكن أن يُمسك باليد، فإننا لن نقف عند هذه الصورة، إذ في البيت ثم صورة أخرى تشبهية، يشبه فيها الحلم بالبرد، فهو في الاستعارة رقيق الحواشي وذاك ما جلب عليه عيب العائبين؛ لأن العرب وصفوا الحلم بالصفاقة والدقة، وهو في التشبيه بُردٌ، والبُرد عند الطائي والجبال عند الفرزدق يختلطان في الشعر واستعملهما الشعراء من قبل، وإذا كنا قد ابتعدنا عن الجاهلية وما كانت تستدعيه من القوة والشراسة المرتبطة بالصحراء وشظف العيش وصعوبته، وامتد ذلك إلى ما بعد الدولة الأموية لنجد أنفسنا أمام الخلافة العباسية وما اقترن بها من التطور والتحضر والتمدن، فإننا لن نستسيغ وصف الحلم بالجبل في هذه البيئة المتحضرة، وإنما نقبل وصفه برقة الحواشي، ونقبل أن يشبهه أبو تمام هذه الشاعر الحضري بالبُرد " رمز العقل . الحلم . وقد خلع الرسول عليه السلام بُردَه على كعب بن زهير معجبًا به، وهذه الحادثة نفسها تشير إلى طابع خاص للعقل لا يخلو من جانب وجداني جمالي، وهذا هو الجانب الذي كشفه أو خلقه أبو تمام في شعره " [٥١] ليثبت لنفسه وفنه المقدرة الإبداعية التي لا تسير فحسب في ركاب القديم، وإنما تحاول أن تبتكر وتبدع وتعطي نفسها وفنها شيئًا من الخصوصية الفنية المصحوبة بالذيوع والشهرة .

وعلى هذا النحو من التطور المتساوق وتطور الحياة في عصور الشعر العربي وجدنا وصف القصائد أو الشعر عامة عند الجاهلين بالرمح المثقفة والنبال ذات السم الناقع، وينتقل الوصف إلى الشناعة وما تستدعيه من التشهير والقدح والذم، ثم تصور القصائد بالصواعق المحرقة عند جرير، بينما نجدها عند بشار بن برد وهو من مخضرمي الدولتين: الأموية والعباسية قد أشبهت المزامير، ومن ثمة لم يكن أبو تمام بدعًا في تصوير قصائده على هذا النحو الذي لم يُعجب من عرضنا لهم من النقاد القدامى، رغم جودة صورته ودقة سبكه وجمال حبكه، مع ملاءمة اللفظ للدلالة العامة للبيت، والقضية من قبل ومن بعد محتكمة إلى الذوق الفني في تقبل الصورة أو رفضها .[٥٢].

ان من الطبيعي ان يُحارب شاعر الحداثة والتجديد ابي تمام وذلك لكونه أنشأ لنفسه لغة شعرية خاصة به، فاستعمل الانزياح في شعره بشكل واسع وواضح، مماكان يسمى سابقا الاستعارة والمجاز، فجاءت لغته في غير ومنها، وجاء هو في غير عصره، بل متقدما على ومنه، ولذلك لم يفهمه اغلب ابناء عصره، مما أسس للكثير من الادعاءات التي حاول أولا النيل من أصله العربي أولا وثانيا الاساءة اللى شعره بشتى الطرق ، ولكنها فشلت جميعا وبقي ابو تمام علما من اعلام الشعر العربي، ويكفيه ان قال عنه المتنبي (ابو تمام استاذ كل من قبله من الشعراء؟)!

الهوامش والمصادر والمراجع

١- الموازنة بين ابي تمام والبحتري، ابوالقاسم بن بشر الآمدي، الاستانة،: ،١٢٧٨،"١٢٥
٢- أخبار أبي تمام – الصولي ابو بكر محمد بن يحيي، تحقيق خليل عساكر ورفيقيه – الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٨م. :٢٧٢ وانظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٩٤ –دار صادر ١٩٧٧م.
٣- العمدة في صناعة الشعر، ابن رشيق القيرواني، مصر، مطبعة السعادة ١٣٢٥ –١٩٠٧،:٢/٢
٤- شعراء النصرانية بعد الاسلام، تأليف الأب لويس شيخو، بيروت،١٩٢٤ –١٩٢٧،:٢٥٦
٥- الزهرة – النصف الأول من كتاب الزهرة، تأليف أبي بكر محمد بن ابي سليمان الاصفهاني، اعتنى بنشره لأول مرة لويس نيكل البوهيمي وابراهيم طوقان، ببيروت، ١٩٣٢ – ١٣٥١ هـ ،:٢٦
٦- ابو تمام شاعر الخليفة المعتصم، عمر فروخ، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان،١٩٧٨م – ١٣٩٨ هـ ،:١٣٣
٧- أعيان الشيعة (الجزء ١٩: ابو تمام) تأليف محسن الامين، دمشق،١٩٤٦ – ١٣٦٥ هـ ،:٣١
٨- ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٩٤ –دار صادر ١٩٧٧م.
٩- الأصفهاني: كتاب الأغاني – تحقيق د/ إحسان عباس، د/ إبراهيم السعافين، د/ بكر عباس ٢٦٥/١٦- ط٢٠٠٨/٣م –دار صادر٧
١٠- الصولي: أخبار أبي تمام –تحقيق خليل عساكر ورفيقيه ص ٢٤٦– الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٨م.
١١- الخطيب البغدادي : تاريخ مدينة السلام تحقيق وتعليق د/ بشار معروف ١٥٨/٩– ١٥٩ – ط٢٠١١/١م – دار الغرب الإسلامي.
١٢- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق – دراسة وتحقيق محب الدين العمروي ١٩/١٢ – دار الفكر ١٩٩٥م – بيروت:٥٣
١٣- عبد الله ابن المعتز: كتاب البديع –تعليق ونشر إغناطيوس كراتشقوفسكي ص ١ – ط١٩٨٢/٣م –دار المسيرة –بيروت.
١٤- الجاحظ: البيان والتبيين – تحقيق وشرح عبد السلام هارون ٢٦٣/١، ٧٩/٤ – ط١٩٨٥/٥م – الخانجي – القاهرة.
١٥- عيون الاخبار، ابن قتيبة، دار الكتب المصرية،١٩٢٥، ج٢،:٤٦
١٦- المبرد محمد بن يزيد: الكامل –تحقيق وتعليق د/ محمد أحمد الدالي ٢٦٣/١–
١٧- ديوانه:٥٨
١٨- ابن عساكر.. مصدر سابق:٥٥
١٩- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر – بعناية د/ يوسف البقاعي ٣٤٥/٣– الطبعة الأولى – دار إحياء التراث العربي –بيروت.
٢٠- لويس شيخو: شعراء النصرانية بعد الإسلام – القسم الثالث – الدولة العباسية ص٢٥٦– مطبعة الآباء اليسوعيين –بيروت ١٩٢٦م.

٢١- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ط١، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٩٩٧،ج٧،:٤٢٨

٢٢- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي –ترجمة د/ عبد الحليم النجار ٧١/٢– ط٥/١٩٨٣م –دار المعارف.

٢٣- د/ طه حسين: تمهيد في البيان العربي –مقدمة كتاب نقد النثر –ص٩ –طبعة دار الكتب العلمية –١٩٩٥م

٢٤- ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، القاهرة،١٩٥١ –١٩٥٧ – ٣٨٤/١.

٢٥- د/ طه حسين: من حديث الشعر والنثر ص ٩٥–دار المعارف ١٩٥٣م.

٢٦- د/ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ٣ العصر العباسي الأول ص ٢٦٩– ط٣/١٩٦٦م –دار المعارف، وانظر: دائرة المعارف الإسلامية ترجمة محمد ثابت ورفاقه مج١– عدد٥ ص ٣٢٠–مطبعة مصر ١٩٣٤م ٠

٢٧- د/عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله –دراسة تحليلية ص ٢٣–بيروت ١٩٦٤م.

٢٨- م.ن:٢٣

٢٩- د. مصطفى الشكعة/ الشعر والشعراء في العصر العباسي ط١٩٧٩/٣م –دار العلم للملايين ،:٦٩

٣٠- علي بن العباس النوبختي، وليس ابن إسماعيل، روى عن البحتري وابن الرومي، وتوفي في سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، أو أربع وعشرين وثلاثمائة عن عمر يقارب الثمانين عامًا.انظر: الذهبي : تاريخ الإسلام ، تحقيق : د. عمر عبد السلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ،١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧،– :٥٣٧/٧ سابق . ٥٣٧/٧– وانظر منه هامش ص ٤٩٧.

٣١- . البحتري: ديوانه –تحقيق حسن كامل الصيرفي ١٢٥٣/٢– ط١٩٧٧/٣م –دار المعارف ،:٦٤

٣٢- الآمدي: أبو القاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري – تحقيق السيد أحمد صقر ١/ ٨– ط١٩٩٢/٤م –دار المعارف

٣٣- ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٢/ ٢٥، وقد نقلنا الأبيات الثلاثة كما في رواية شرح التبريزي لديوان أبي تمام ١/ ٤٠٢ وهي لاتختلف عن رواية ابن عساكر إلا في كلمة يُكْدِ فقط، فهي عند ابن عساكر: يكن

٣٤- الصولي: أخبار أبي تمام . سابق . ص ٢٣٥–

٣٥- الجرجاني،الوساطة بين المتنبي وخصومه، دار احياء الكتب العربية، القاهرة١٣٦٤ هـ – ١٩٤٥م :٣١

٣٦- الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد،الأغاني – تحقيق د/ إحسان عباس، د/ إبراهيم السعافين، د/ بكر عباس – ط٢٠٠٨/٣م –دار صادر –بيروت.،"٨٢

٣٧- الآمدي: أبو القاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري – تحقيق السيد أحمد صقر ١/ ٨– ط١٩٩٢/٤م –دار المعارف

٣٨- ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، مصر ، مطبعة السعادة، ١٩٠٧م،–١٣٢٥هـ ،:٨٣

٣٩- الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، دار احياء الكتب العربية، القاهرة١٣٦٤ هـ – ١٩٤٥م:٤٢

٤٠- علي بن طباطبا (ابن الطقطقي)، الفخري في الاداب السلطانية،)، مصر – القاهرة، المطبعة الرحمانية:١٧١

٤١- ديوان أبي تمام ، تقديم وشرح : د. محي الدين صبحي ، ط ١ ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٧م ، م ١ ق (٤) ص (٩٦)

٤٢- ابن الاثير ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ راجعه وصححه د/ محمد يوسف الدقاق – ط١٩٨٧/١م –دار الكتب العلمية ،:١٦٨/٦

٤٣- ديوان ابي تمام، شرح التبريزي:٢/٣٨٠
٤٤- الأصفهاني: كتاب الأغاني – تحقيق د/ إحسان عباس، د/ إبراهيم السعافين، د/ بكر عباس ١٦/٢٦٥- ط٣/٢٠٠٨م –دار صادر.
٤٥- الجاحظ: الحيوان – تحقيق وشرح عبد السلام هارون ٣/ ١٣١- ١٣٢ – ط٢/ ١٩٦٥م – مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
٤٦- ديوانه بشرح التبريزي ٢/ ٨٨
٤٧- الآمدي: الموازنة ١/ ١٤٣
٤٨- العسكري: الصناعتين ص ١٢٥.
٤٩- القاضي الجرجاني: الوساطة ص ٧٤.
٥٠- شرح ديوان الفرزدق –ضبط وشرح إيليا الحاوي ٢/ ٣٢١- ط١/ ١٩٨٣م –دار الكتاب اللبناني
٥١- د/ مصطفى ناصف: نظرية المعنى في النقد العربي ص ١١١.
٥٢- دكتور ياسر عبد الحسيب رضوان، جدلية التاريخ والنقد حول أبي تمام وشعره، موقع alukah,net.www، ص:١٩٢.